بسم الله الرحمن الرحيم

«رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا» 8 رَبِيعٍ الثَّانِي 1446هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ يُحَاوِلُونَ إِلْصَاقَ الشُّبَهِ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَيَصِفُونَ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ وَأَتْبَاعَهُ بِالتَّعَصُّبِ وَالطَّائِفِيَّةِ، وَالْعُنْفِ وَالشِّدَّةِ، وَالْإِسْلَامُ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَالْإِسْلَامُ دِينُ الرَّحْمَةِ، وَالتَّسَامُحِ وَالْمَحَبَّةِ. أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ». حَنِيفِيَّةٌ فِي التَّوْحِيدِ، سَمْحَةٌ فِي الْعَمَلِ.

وَلَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَىٰ الْيَمَنِ، قَالَ لَهُمَا: «ادْعُوَا النَّاسَ، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَصَدَقَ اللهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: أَيْ: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوْسِعَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَالرَّحْمَةِ وَالتَّسْهِيلِ وَالسَّمَاحَةِ.

وَهَا هُوَ نَبِيُّنَا ﷺ يَحُثُّ عَلَىٰ السَّمَاحَةِ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَالتَّحَلِّي بِمَعَالِي الْأُمُورِ، وَتَرْكِ الْمُشَاحَّةِ، وَيَدْعُو ﷺ بِالرَّحْمَةِ لِمَنْ تَحَلَّىٰ بِذَلِكَ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَىٰ، وَإِذَا اقْتَضَىٰ».

وَمَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا سَهْلًا. قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: أَيْ سَهْلَ الْخُلُقِ، كَرِيمَ الشَّمَائِلِ، لَطِيفًا مُيَسَّرًا فِي الْخُلُقِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَتَجَلَّىٰ السَّمَاحَةُ وَالرَّحْمَةُ فِي صُوَرٍ شَتَّىٰ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ. فِي عِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ، وَفِي سُلُوكِهِ وَأَخْلَاقِهِ، مَعَ قَرَابَتِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، فَكَانَ ﷺ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِجِنْسِهِمْ أَوْ دِينِهِمْ. أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ بَعَثَتْ زَيْنَبُ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ -زَوْجِهَا- بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ عِنْدَ خَدِيجَةَ، أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَىٰ أَبِي الْعَاصِ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا». فَقَالُوا: نَعَمْ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّىٰ قَامَ عَلَىٰ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللهُ»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»، قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟»، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّىٰ سَبِيلَهُ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.

فَلَمْ يُكْرِهْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ، فَدَخَلَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِهِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَاهْتَدَىٰ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ.

وَمِنْ عَظِيمِ سَمَاحَتِهِ ﷺ: دُعَاؤُهُ لِلْمُشْرِكِينَ رَجَاءَ أَنْ يَهْدِيَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ وَأَصْحَابُهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا - فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ -، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ».

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَأَوْسَعَهُمْ صَدْرًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً، كَثِيرَ التَّبَسُّمِ، طَيِّبَ الْكَلَامِ، وَصُولًا لِلْأَرْحَامِ، حَرِيصًا عَلَىٰ السَّلَامِ وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَقُومَ لَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَيَجْلِسُ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، يُخَالِطُ النَّاسَ

فَيُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ الْأَمَانَةِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْغِشِّ وَالْخِيَانَةِ، حَسَنَ الْمُصَاحَبَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ، يَغُضُّ عَنْ أَخْطَاءِ وَهَفَوَاتِ مَنْ خَالَطَهُ، يَقْبَلُ مَعْذِرَةَ الْمُسِيءِ مِنْهُمْ، وَإِذَا بَلَغَهُ خَطَأُ أَحَدٍ مِنْهُمْ لَا يُقَابِلُهُ بِمَا يَكْرَهُ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟».

وَكَانَ ﷺ يَتَلَطَّفُ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، حَتَّىٰ يَظُنَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، يَسْتَشِيرُ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ مِنْهُمْ، مَعَ أَنَّهُ تَمَيَّزَ بِتَأْيِيدِ الْوَحْيِ عَنْهُمْ، يُشَارِكُ أَصْحَابَهُ فِيمَا يَعْمَلُونَ، وَيَتَحَمَّلُ مِنَ الصِّعَابِ مَا يَتَحَمَّلُونَ، وَيُوجِزُ ذَلِكَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ فِي بَيَانِ سَمَاحَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَقُولُ: إِنَّا وَاللهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ السَّمَاحَةَ وَالرَّحْمَةَ تُثْمِرُ مُجْتَمَعًا يَسُودُهُ الْحُبُّ وَالتَّرَاحُمُ، وَالتَّعَاوُنُ وَالتَّلَاحُمُ. وَلِمَ لَا وَهُوَ دِينُ السَّمَاحَةِ وَالْيُسْرِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ، وَالْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ؛ فَعَقِيدَتُهُ أَصَحُّ الْعَقَائِدِ وَأَقْوَمُهَا، وَعِبَادَاتُهُ أَحْسَنُ الْعِبَادَاتِ وَأَعْدَلُهَا، وَأَخْلَاقُهُ أَزْكَىٰ الْأَخْلَاقِ وَأَتَمُّهَا وَأَكْمَلُهَا، فَهُوَ دِينٌ لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا شِدَّةَ، وَلَا تَعْسِيرَ وَلَا مَشَقَّةَ.

وَقَدْ نَدَبَ الْإِسْلَامُ كَثِيرًا إِلَىٰ التَّحَلِّي بِخُلُقِ السَّمَاحَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ الْعِبَادَاتِ؛ فَإِظْهَارُ الْبَشَاشَةِ وَالْبِشْرِ عِبَادَةٌ، وَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ عِبَادَةٌ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ عِبَادَةٌ، وَإِكْرَامُ الضَّيْفِ عِبَادَةٌ، وَاللُّقْمَةُ يَضَعُهَا الرَّجُلُ فِي فَمِ زَوْجَتِهِ عِبَادَةٌ، وَشُكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْيُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ عِبَادَةٌ، وَكَفُّ الْأَذَىٰ عَنِ النَّاسِ عِبَادَةٌ، وَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ عِبَادَةٌ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ

خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ سَمَاحَةَ الْإِسْلَامِ تَتَجَلَّىٰ فِي عِزَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِدِينِهَا، بِإِيمَانِهَا وَعَقِيدَتِهَا، بِتَطْبِيقِهَا لِشَرِيعَةِ رَبِّهَا، فَلَمْ تَكُنْ سَمَاحَتُهُ ﷺ وَرَحْمَتُهُ لِتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِقَامَةِ حُدُودِ اللهِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

أَلَا مَا أَجْمَلَ الْعَفْوَ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَالتَّوَاضُعَ عِنْدَ النَّصْرِ، وَالسَّمَاحَةَ مَعَ الْمُسِيئِينَ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَمَثَّلَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الدِّينِ! دِينُ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّسَامُحِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالتَّآلُفِ وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ، وَالِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.